

عن السلف والسلفية



أد/ محمد عبد الفضيل القوصي(*)

من يتأمل النقاش الناشب بين المهتمين بقضية السلفية.. والفكر السلفي تعتريه الدهشة حين يلحظ أن صورة السلف الحقيقية التي احتفظت بها ذاكرة الأمة، والتي هي مدار القضية -قد أصابها التجريف والتشويه على أيدي بعض أطرافها، كل على طريقته، ولكل وجهة هو موليتها، لقد أضى مفهوم السلف عند أحد أطرافها، وهو الطرف المتدثر بعباءة التنوير والحدائثة تعبيرًا شائعًا عن تكريس أفضلية المتقدم على المتأخر؛ لمجرد سبق الزمني، وتعبيرًا أيضًا عن ترسيخ قيمة التقليد، وغلق أبواب الاجتهاد، ومحاصرة لروح الإبداع والابتكار في جميع المجالات، الدينية منها وغير الدينية، بل أصبح مفهوم السلف لديهم هو المسئول عن انعدام الحراك الاجتماعي، وتجمد الحراك السياسي ... إلخ.

يقرر الحديث النبوي الكريم، لكن الصحابة الأجلاء لم يظفروا بتلك الخيرية لمجرد سبق الزمني، أو تقادم العهد؛ بل لأنهم السابقون بالخيرات، ولأنهم الذين جاهدوا وصبروا وقتلوا وقتلوا، فالمعيار الإيماني والأخلاقي هو مصدر الخيرية، وليس الفضل للمتقدم، فقد يكون الفضل للمتأخر، حين يسبق به جهده وعمله.

ثانيًا: إن تلك الثلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهم السلف بحق لم يكونوا نماذج متكررة، متشابهة الصفات، متماثلة السمات، بل كانوا يختلفون

أما مفهوم السلف عند الطرف الآخر، المتدثر بعباءة الوقوف عند ظواهر النصوص الدينية، فقد أضى مرادفًا لتعطيل نشاط العقل أو النفور منه، وتوسيعًا لدائرة التحريم، وتركيزًا على الأشكال والمظاهر... إلى غير ذلك من مظاهر ضيق الأفق، والتصحّر العقلي، والتحجر الوجداني.

نود في هذا الصدد أن نطرح على نحو مجمل عدة ركائز رئيسة في هذه القضية، ذات الأطراف المتشابكة:

أولاً: لا جدال في أن القرون الأولى من تاريخ الأمة الإسلامية هي خير القرون كما

(*) عضو هيئة كبار العلماء.



الإسلام

ويتفقدون، ويجتهدون في فهم النصوص وتنزيلها على واقع الحياة، ثم ينظر بعضهم في أقوال بعض، ويتعقب بعضهم أقوال بعض، لكن اجتهاداتهم لم تكن صادرة عن الميل والهوى، بل كانت اجتهادات منضبطة بالفهم العميق للكتاب والسنة، لا تنقض للإسلام عروة، ولا تعود على الأصل بالنقض كما يقول الأصوليون، وهاهنا يكون حق الاجتهاد مكفولاً ومتاحاً ومفتوحاً، أما حين يكون الأمر نقضاً للثوابت واختراقاً للأصول؛ فإن الحق في الاجتهاد ينقلب إلى حق في الانقضاء!

ثالثاً: لئن كان هذا حال من يسمون بحق (السلف) فقد أتى بعدئذ على الناس حين من الدهر اصطنع فيه البعض لافته براءة هي (السلفية) ادعى بها أصحابها أنهم وحدهم - ودون سواهم - ورثة السلف، وأنهم - دون سواهم - المنتسبون إليهم، فقصروا وراثته السلف على اتجاه أحادي بعينه، ثم تخيروا من شوارد الآراء ومفردات المقالات ما خيل إليهم أنه وحده رأي السلف، وأنه الحق كل الحق، أما غيره فهو الباطل كل الباطل، وامتد نطاق تلك الآراء من العقائد إلى العبادات، إلى المعاملات، والتصرفات الحياتية التي تحفل بها دنيا الناس، وذلك كله من خلال منهج متصلب يتجمد عند ظواهر النصوص، ويعطل نشاط العقل، ويلغي وظيفة اللغة بحقيقتها ومجازها وتأويلاتها القريبة والبعيدة في فهم القرآن الكريم والسنة المطهرة، في غفلة عن أن

السلف أنفسهم لم يتجمدوا على رأي واحد، بل كانوا يتمتعون بضرب من السماحة العقلية التي تتيح لبعضهم أن يصوب رأي الآخر، ويتعقبه، ويختلف معه.

رابعاً: ولئن كان موقف (السلف) بحق: بريئاً من التحجر والانغلاق والأحادية، فإن من يجعل الفكر السلفي برمته - دون تفرقة بين اتجاه السلف بحق، وبين من ادعوه واحتكروه - مسئولاً عن محاصرة روح الإبداع والابتكار، ومسئولاً أيضاً عن جمود الحراك الاجتماعي والسياسي، ثم يلقي بسائر تبعات التخلف التي تعاني منها الأمة على كتفي الفكر السلفي وحده دون سواه، غافلاً عن مجموع العوامل التاريخية والاجتماعية والفردية التي تتشابك وتتعدد. ترى: هل غابت عن الذاكرة تلك الروح الإبداعية التي أنتجت حضارة الإسلام العلمية والعملية خلال قرون عدة كانت آراء السلف فيها ملء العيون والأسماع والعقول؟! هل غابت عن الذاكرة تلك الروح الإبداعية التي جسدها مدرسة الرأي في كيان الفكر الإسلامي على يدي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (٨٠ هـ - ١٥٠ م) وهو في طليعة السلف علماً وهداية؟!!

ثم أقول أخيراً: لعل تلك الوقفات الموجزة تسهم في إزالة الغبار عن وجه طائفة السلف، التي لحقها التشويه والافتراء سواء ممن ادعوا واحتكروها، أو ممن أنكروا صفاءها ونقاءها، وهي من كل ذلك براء.

